# طلعت حرب

## حامل راية استقلال الاقتصاد المصرى

- «من غير حرب أغنى الشرق عن الغرب».
- مفكر ورجل اجتماع وواضع اقتصاديات الثقافة.
- عداؤه للسيطرة الأجنبية جعله يُدخل اسم «مصر» فى كل مشروعاته.
- أطلق فكرة «الإيجار التمليكى» للأراضى الزراعية فصارت للفلاحين.
- بنك مصر مطلب وطنى وصراع إرادات ضد الاحتلال.
- نطلب أن تكون مصر للمصريين، فلماذا لا نعمل للوصول إليها؟.
- قال للمستوول الإنجليزى: هل دفاعنا عن بلدنا جنون؟

**يتخيل كثيرون، عندما يسمعون أو يقرأون عن رجل بنوك قديم، صورة شخص يجلس إلى طاولة فى ركن من الشارع، يمارس أعمال الصرافة، أو يقرض الناس المال بالربا، ويطاردهم آخر النهار طالبًا فلوسه وما عليها من فائدة.**

**لكن أولئك الكثيرين لا يعرفون أن رجلاً مثل طلعت حرب، ولد فى القرن التاسع عشر، لكنه كان يفكر بعقلية القرون التالية، ويعمل وفق معطيات الغد، فى سبيل استقلال اقتصاد بلاده مصر، وكان رجل اقتصاد من الطراز الأول، ورجل فكر وثقافة أيضًا، ولم يكن ذلك «الصراف»، الذى يحب البعض أن يتخيلوا صورته.**

مثّل طلعت حرب نموذجًا، لما يمكن أن يقوم به رجل الاقتصاد الوطنى، فى النهوض ببلاده ودفع عجلة التنمية فيها فى كافة المجالات، وكان أيضًا رمزًا من رموز النضال الوطنى ضد السيطرة الأجنبية، وإليه يعود الفضل فى ظهور أجيال من رجال الاقتصاد المصريين والعرب، الذين يؤمنون بحتمية التحرر الاقتصادى، كمنطلق أساسى لتحقيق الاستقلال السياسى والعدالة الاجتماعية.

وكان طلعت حرب فى طليعة المثقفين المصريين والعرب، وله مؤلفات مهمة فى الفكر والسياسة والاقتصاد، ومساجلات مشهورة مع قاسم أمين، الذى دعا إلى تحرير المرأة، فقد كان طلعت حرب مع هذه الحرية، ولكن فى إطار القيم الدينية وليس بعيداً عنها.

وكان زعيمًا وطنيًا، ومصلحًا اجتماعيًا، وصاحب رؤية اقتصادية متميزة.

وهكذا استطاع بعقليته الفذة، أن يقيم دعائم الاقتصاد المصرى فى القرن العشرين على أسس متينة، متكاملة، استطاعت الصمود فى وجه الزمن

والأزمات، وتجاوزت كل العقبات، والمتغيرات السياسية الداخلية، والخارجية التى واجهته، واعتبره كثيرون هرم مصر الرابع.

وُلِدَ محمد طلعت حرب فى ٢٥ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٨٦٧ فى قصر الشوق، فى حى الجمالية فى القاهرة، بالقرب من ضريح الإمام الحسين بن على عليه السلام، وكان أبوه حسن بك محمد حرب، موظفا فى مصلحة السكة الحديد، وترجع أصوله الريفية إلى قرية «ميت أبو على» من قرى محافظة الشرقية، وتنتمى والدته إلى عائلة صقر فى مدينة منيا القمح، التابعة أيضًا، لمحافظة الشرقية، وكان جده لأمه أحمد «بك» صقر، الذى تعلم فى المدارس المصرية، وتدرج فى وظائف الحكومة، حتى صار من كبار موظفى السكة الحديد أيام الخديوى إسماعيل، ونال رتبة «البكوية».

## زميل العظماء

وترجع أصول أسرة طلعت حرب، كما قال عن نفسه، إلى قبائل «حرب» العربية، التى هاجرت إلى مصر، واستقرت فيها بعد الفتح الإسلامى، وهى بطن من بطون بنى هلال بن عامر بن صعصعة، الذين كانت منازلهم فى الحجاز، على ما ذكره القلقشندى فى كتابه «نهاية الأرب».

ألحقت الأسرة ابنها محمد طلعت حرب، بالكُتَّاب، ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، والتحق بعد ذلك بالمدرسة الخديوية، ليتم تعليمه الثانوى فيها، ومنها إلى مدرسة الحقوق الخديوية التى كانت تعج وقتها، عام ١٨٨٤، بالتيارات الوطنية، وكان من بين أقرانه فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين، والشاعر أحمد شوقى، وغيرهم، وحصل طلعت حرب فى شهر مايو (أيار) سنة ١٨٨٦، على شهادة الحقوق بمرتبة الشرف، ثم نال مرتبة الشرف فى امتحانات الترجمة فى فبراير ١٨٨٧.

وعُيِّن فى العام ذاته مُترجمًا فى القسم القضائى فى الإدارة السنية، وبعد عام واحد، أصبح مديرًا لإدارة المحاسبات، ثم مديرًا لمكتب تسوية المنازعات (قلم القضايا)، خلفًا للزعيم الوطنى محمد فريد.

وترك عام ١٩٠٥ «الدائرة السنية»، بعد قرار تصفيتها، وكان قد اكتسب، من خلال عمله فيها شهرة خاصة فى الإدارة الاقتصادية الناجحة للمشروعات، والأراضى الزراعية، وتنظيم الحسابات، كما كان لدوره الوطنى البارز، فى تصفية الدائرة السنية، أثر عميق فى نفوس المواطنين، حين سعى إلى بيع معظم الأراضى الزراعية، التى كانت تمتلكها الدائرة إلى الفلاحين الذين كانوا يزرعونها بشروط ميسرة، فقد أقنع بقية أعضاء هيئة التصفية بأن يقبلوا من الفلاحين دفعة ضئيلة من المال، كقسط أول من الثمن، ثم يقبلوا منهم أقساط الاستئجار على أنها أقساط من الثمن، حتى ينتهوا من سداد ثمنها، وهو ما يطلق عليه اليوم «الإيجار التمليكى»، وهكذا قام طلعت حرب بأول مشروع وطنى لتيسير عملية تحويل المزارعين الأجراء إلى ملاك للأراضى التى يزرعونها.

بعد نجاح تجربته فى تصفية «الدائرة السنية» عهد إليه بإدارة شركتى «كوم أمبو» و «العقارات المصرية» وتعمل كلتاهما فى مجال استصلاح وبيع الأراضى. وكانتا مملوكتين للأجانب ويديرهما مدير يهودى. وكانت المرة الأولى التى يعهد فيها لمدير مصرى بهذا المنصب.

## مشروعاته المالية الخاصة

أظهر طلعت حرب، من خلال عمله فى هذه الشركات الأجنبية، اهتمامًا واضحًا بالفلاحين، وصغار الملاك، والمزارعين، حينما لاحظ أعباء الديون التى كانت تثقل كاهلهم. فقد كان هؤلاء يلجأون لسداد ما عليهم من أقساط، إلى الاستدانة من المرابين اليهود، حتى ينتهى بهم الأمر إلى ضياع ممتلكاتهم، وأحس بمدى الاستغلال والتحكم اللذين يلقاهما صغار الملاك من البنوك الأجنبية القائمة. وكانت طلائع الأزمة الاقتصادية قد بدأت تظهر بوضوح سنة ١٩٠٦. وكان أول ضحاياها الفلاحين وممتلكاتهم، فآمن بضرورة إقامة بنك وطنى ينشأ بأموال مصرية، ويعمل من أجل حماية أبناء مصر من الاستغلال الأجنبى،

وحققت الفكرة أول نجاح لها سنة ١٩٠٨، حينما استطاع طلعت حرب تأسيس «شركة التضامن المالى»، لتمارس الأعمال المالية بشكل تعاونى.

وظل طلعت حرب يرعى هذه الشركة رعاية خاصة، حتى بعد إنشائه بنك مصر، وإلى أن توفاه الله تعالى، ثم تحولت الشركة بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى «بنك التضامن المالى»، والتى كانت مثالاً متقدمًا، ورائعاً للبنوك التعاونية التى تتعامل مع صغار المقترضين.

## الانطلاقة الكبرى

فى عام ١٩١٠ ألف طلعت حرب كتابه «علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين أو بنك الأمة»، ورأى فى هذا البنك المخرج الاقتصادى لمصر، من تبعيتها للمحتل الغاصب، الذى يستنزف موارد البلاد. وعقد المؤتمر المصرى الأول فى ٢٩ إبريل سنة ١٩١١، لبحث حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية، وضم مفكرى مصر، وكبار ساستها، وعلمائها، وأدبائها على اختلاف مشاربهم، واعتلى طلعت حرب منبر المؤتمر، ليقدم خلاصة بحثه عن «الربا الفاحش الذى يعانى منه الفلاحون» وأهاب بكل المصريين أن يستثمروا فائض أموالهم لصالح الاقتصاد القومى، كواجب وطنى مقدس، وكتب فى جريدة «المؤيد»: «نطلب الاستقلال ونطلب أن تكون مصر للمصريين، وهذه هى أمنية كل مصرى، ولكن ما لنا لا نعمل للوصول إليها؟ وهل يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوروبى، ومهندسنا المهندس الأوروبى؟ أرضينا أن يكون التعليم قاصرًا على تخريج مستخدمين للحكومة، وأن نكون فى بلادنا غرباء؟ علينا أن نكون عاملين فى بلادنا على إحياء فكرة التجارة، وملكة الصناعة فى أبنائنا».

وبدأت الفكرة تأخذ طريقها إلى النور سنة ١٩١٤، غير أن قيام الحرب العالمية الأولى أوقف التنفيذ، لكن الفكرةِ ظلت مطروحة شعبيًا، حتى قامت ثورة ١٩١٩، فاشتعلت المشاعر الوطنية فى كل مكان، وأصبح إنشاء بنك مصر مطلبًا وطنيًا، أغضب المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية، وفى أحد أيام شهر

أغسطس من عام ١٩١٩م استدعى المستشار الإنجليزى، طلعت حرب، إلى وزارة المالية ليناقشه فى فكرة البنك الذى يزمع إنشاءه، وكان يدعو له فى كل أنحاء مصر، ودار بينهما حوار كشف عن غطرسة المستعمر، واستهانته بعقول المصريين، حين قال لطلعت حرب: «كنت أظنك رجلاً عاقلاً لكنك كما يبدو، أصبت بالجنون المنتشر فى البلد هذه الأيام».

ورد طلعت حرب : «وهل دفاع أصحاب البلد عن أرضهم ومصالحهم جنون».

وذاع أمر ذلك اللقاء، فزاد من حماسة الشعب المصرى لإنشاء بنكه الوطنى، وتم توقيع العقد الابتدائى لإنشاء البنك، فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠، وفى ٣ إبريل من العام نفسه، صدر المرسوم السلطانى بالموافقة على «تأسيس شركة مساهمة مصرية تحت عنوان (بنك مصر) برأسمال ٨٠ ألف جنيه موزعة على عشرة آلاف سهم، قيمة السهم ٤ جنيهات».

وقد اشترط المؤسسون أن تكون الأسهم اسمية لا يملكها إلا مصريون، كما اتفقوا على أن تكون اللغة العربية هى اللغة

## المثقف الوطنى

* لم تشغل الأمور المالية والاقتصادية طلعت حرب عن القراءة والبحث، فألف كتاب «تاريخ دول العرب والإسلام» الذى طبع لأول مرة عام ١٨٩٨ ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٥.

* عندما أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» رد عليه طلعت حرب بكتاب «تربية المرأة والحجاب».

* وأصدر قاسم أمين كتابه الثانى «المرأة الجديدة» فرد عليه طلعت حرب بكتاب «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب»، وكان طلعت حرب يؤيد قاسم أمين فى وجوب تعليم المرأة، ولكنه خالفه فى سفور المرأة وتحررها الزائد.

* وألف عام ١٩١٠ كتاب «علاج مصر الاقتصادى» وأصدر فى العام ذاته كتابه «قناة السويس»، الذى عارض فيه بشدة مد امتياز الشركة الأجنبية على القناة فترة أخرى، وكان هذا الكتاب ضمن الوثائق التى قرأها الزعيم جمال عبد الناصر، قبل أن يتخذ سنة ١٩٥٦ قرار تأميم قناة السويس.

* لم ينل محمد طلعت حرب،

الرسمية للبنك، فى كل أعماله وشؤونه.

وبدأ البنك عمله، وكان عدد كل العاملين فيه عشرين موظفًا، وفى ٧ مايو سنة ١٩٢٠، فتح البنك أبوابه للمصريين ليقوم بكافة الأعمال التجارية والمالية والمصرفية، واستمر يكبر، وتنتشر فروعه فى مصر والدول العربية، وحتى فرنسا، وارتفع رأس المال إلى نصف مليون جنيه، ثم إلى مليون جنيه فى ديسمبر سنة ١٩٢٦، ثم بدأ يتضاعف عامًا بعد عام، حتى صار ثانى أكبر البنوك المصرية فى رأس المال وحجم التعامل.

التكريم اللائق به، إلا بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر، حين أصدر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قرارًا بإطلاق اسمه على أكبر شارع تجارى فى وسط القاهرة، وعلى الميدان الذى يتوسطه مع وضع تمثال له فى هذا الميدان، وكرمه الرئيس الراحل أنور السادات فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٠، بمنح اسمه قلادة النيل، وقد تسلم أحفاده القلادة.

غير أن طلعت حرب لم يكن يهدف لمجرد إنشاء بنك تجارى وطنى، ولكن البنك كان وسيلته لإقامة صناعة مصرية خالصة، تستفيد من الخامات، التى تصدرها مصر بثمن بخس، كما تستفيد من الأيدى العاملة الرخيصة والعاطلة، وكل ذلك يصب فى النهاية لمصلحة الوطن ورفاهيته وازدهاره الاقتصادى، وهذا ما ميز بنك مصر عن غيره من البنوك الأخرى التقليدية.

## ٢٢ شركة باسم مصر

وأسس طلعت حرب خلال ٢٠ عامًا، ٢٢ شركة مالية وصناعية وزراعية، وعندما قال له أحدهم: إن ما أنجزته هو ضرب من الخيال، يصل إلى حد الكمال، كان رد طلعت حرب: «إننى لم أصنع شيئًا من أجل بلدى حتى الآن».

ولم يقبل أن يُطلق اسمه على مشروع من مشروعاته، ولا شركة من شركاته، وكان يشعر بالضيق عندما يسميه أحد «زعيم مصر الاقتصادى»، وكانت رؤيته ثاقبة فى الشركات التى أنشأها، حيث كانت كلها تكمل كل منها الأخرى، وتسد نقصًا يحتاجه المجتمع.

ومن ذلك أنه بدأ فى إنشاء «شركة مطبعة مصر» فى شهر مايو (أيار) ١٩٢٢م، عندما لاحظ أن البنك ينفق مبالغ ضخمة على مطبوعاته، وأنشأ المطبعة، توفيرًا للنفقات، وإسهامًا فى نشر الثقافة الوطنية، وإيجاد فرص عمل للشباب، فعملت على طباعة الكتب والمطبوعات، التى تحتاجها مشروعاته القائمة والمستقبلية، ثم بدأ فى إنشاء الشركات تباعًا.

وحاول طلعت حرب أن يبعد البنك عن السياسة، والصراعات الحزبية الضيقة، حتى لا تتأثر مشروعاته بهذه الصراعات، فقال فى إحدى خطبه: «إن سر نجاح بنك مصر هو ابتعاده عن السياسة، ليس نتيجة عدم اكتراث بمصالح البلاد العليا، ولكنه اتباع للحكمة المأثورة، ولكل عمل رجال، فللسياسة رجال، وللمال رجال، ومن يخلط بين عمل وعمل اختلط عليه الأمر، والتوى عليه القصد، وأفلت منه سر النجاح».

## الاختيار

ظل الحاقدون عليه يتربصون به، وعلى رأسهم الاستعمار البريطانى وأعوانه فى مصر، ووجد هؤلاء فرصتهم، عند اشتعال الحرب العالمية الثانية، ففى نهاية سنة ١٩٣٩، زاد الطلب على سحب الودائع من البنوك، ومنها بنك مصر، فانتهز بعض المسؤولين الفرصة، للضغط على طلعت حرب وبنك مصر، عن طريق «صندوق البريد» الحكومى، الذى تعمّد سحب ودائعه من بنك مصر خاصة، على الرغم من أن الصندوق كانت له ودائع لدى البنوك الأخرى، التى يسيطر عليها رأس المال الأجنبى، تفوق مالديه فى بنك مصر، وعندما أراد طلعت حرب الاقتراض من البنك الأهلى بضمان أوراقه المالية، رفض المحافظ الإنجليزى للبنك إعطاءه القرض المطلوب، كما رفض وزير المالية المصرى إيقاف سحب ودائع صندوق التوفير الحكومى، وتفاقمت الأزمة فبدأت القوى الضاغطة توجه ضرباتها إليه، واشترط خصوم طلعت حرب أن يستقيل من بنك مصر، حتى يقرضوه المال، وفطن طلعت حرب إلى أنه هو المقصود بهذا المخطط وليس

البنك، فقدم استقالته إلى مجلس إدارة البنك وضغط حتى قبلها المجلس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩، وتدخلت الجهات المسؤولة، وأقرضت البنك ما شاء من أموال.

توارى طلعت حرب فى الظل، وقبع فى قصره فى العباسية يقرأ ويكتب، وتوفى يوم ١٣ أغسطس (آب)، سنة ١٩٤١، عن ٧٤ عامًا، وكانت وفاته فى قرية العنانية، فى مركز فارسكور، بالقرب من مدينة دمياط، حيث كان يزور أحد أصدقائه هناك. ولم يشهد جنازته سوى قلة. وقال الكاتب حافظ محمود عن يوم جنازة طلعت حرب: «طلعت حرب الذى كان عدد العاملين فى مشروعاته والمتعاملين مع فروع بنكه يبلغون الملايين.. طلعت حرب الذى كان يقف الشعراء بين يديه كما كانوا يقفون بين يدى هارون الرشيد، حينما سُلبت منه مناصبه لم يجد يوم وفاته إلا خلاصة الخلصاء يشيعون جنازته».

ويقول الكاتب رجاء النقاش: «إن طلعت حرب كان يدرك أهمية ازدهار الثقافة، لتجديد الاقتصاد المصرى، وتنوير العقول بالأفكار الجديدة، ولذلك أنشأ شركة التمثيل والسينما واستديو مصر، حتى أصبحت صناعة السينما فى وقت من الأوقات هى المصدر الثانى للدخل القومى المصرى بعد القطن، وعلى المستوى نفسه أنشأ مطبعة مصر ومسرح الأزبكية».